التعليقة وبدايات النحو العربي

Commentary and the beginnings of Arabic grammar

م.م. سجى صباح ناصر
ديوان الوقف السني/ دائرة التعليم الديني والدراسات الإسلامية
alazawysjy102@gmail.com

الملخّص

يتناول بحثُ التعليقةِ وبدايات النحو العربي، نشأة النّحو العربي، وذلك انطلاقا من رصد الظّروف المختلفة التي واكبت ولادة هذا النّوع من العلوم، وهذا ما فتح المجال واسعًا بغية التعرف على الدّوافع الكامنة وراء تقعيد اللغة العربية، والأسباب التي كان لها الفضل الأكبر في بدء هذا العلم.فاللغة العربية من أقدم اللغات في العالم، وقد كان العربي يتحدث اللغة على السليقة، من دون الحاجة إلى قواعد معينة، و ذلك في العصر الذي سبق بدء الدعوة الإسلامية، و لكن مع ازدياد رقعة الدولة الإسلامية، و ازدياد عدد المسلمين من غير العرب، تفشى اللحن، وزادت نسبة الخطأ بين الناس، وهذا ما شكل خطرا حقيقيا تربص باللغة العربية، وليس هذا وحسب، إنّما أثر ذلك على القرآن الكريم، وطريقة فهم معاني الآيات، فالقراءة الخاطئة تؤدي إلى فهم خاطئ للآيات، ومن هذه النقطة كان لابدّ من مواجهة هذا الظّرف، والتصدي له ومقاومته.

لقد استحوذ النّحو العربي على اهتمام الباحثين والدارسين على مرّ العصور، وذلك للخدمات الكبيرة التي أداها في سبيل اللغة العربية، ولغة القرآن الكريم، وهذا ما أعطى البحث أهميته، وقد تم ذلك بالاعتماد على المنهجين الاستقرائي والتاريخي، ووفق تقسيم منهجيّ

الكلمات مفتاحيّة: ((النحو، التعليقة، أبو الأسود الدؤلي، علي بن ابي طالب)).

Abstract

The research on the commentary and the beginnings of Arabic grammar addresses the emergence of Arabic grammar, based on an examination of the various circumstances that accompanied the birth of this type of science. This opened a wide field for understanding the underlying motivations behind the codification of the Arabic language and the reasons that played the greatest role in the inception of this science. The Arabic language is one of the oldest languages in the world, and Arabs spoke the language naturally, without the need for specific rules, in the era preceding the advent of the Islamic call. However, with the expansion of the Islamic state and the increase in the number of non-Arab Muslims, mispronunciation became widespread, and the rate of errors among people increased. This posed a real threat to the Arabic language. Not only that, but it also affected the Holy Qur'an and the way the meanings of its verses

were understood. Incorrect reading leads to a misunderstanding of the verses. From this point on, it was necessary to confront this circumstance, confront it, and resist it. Arabic grammar has captured the attention of researchers and scholars throughout the ages, due to the significant services it has rendered to the Arabic language and the language of the Holy Qur'an. This is what gives this research its importance. It was conducted using inductive and historical approaches, and according to a systematic classification. Keywords: Grammar, Al-Mu'laqah, Abu Al-Aswad Al-Du'ali, Ali bin Abi Talib.

المقدّمة

إنّ نزول القرآن الكريم باللغة العربية أكسب اللغة أهميتها الكبيرة، ولعلّ ذلك هو ما دفع العلماء والباحثين إلى بذل جهودهم في سبيل الحفاظ عليها، ومن هذا المنطلق فقد استحوذ النحو العربي على قدر كبير من جهود العلماء وعنايتهم، فتناولوا نشأته والظروف والملابسات التي أدت إلى ولادته، ومن هو أول من أبدع هذا العلم. وعلى الرّغم من تنوع الآراء حول مؤسس النحو الأول، إلّا أنّها جميعاً تقرّ على أنّ سبب ولادة علم النحو هو ظهور اللحن على ألسنة الناطقين بالعربية، بعد نزول القرآن الكريم وانتشار الإسلام.

لم يدّخر العلماء جهداً في تقصي هذا العلم تقصياً مخلصاً، جعلهم يواكبونه ويؤرخون لولادته، وذلك إيماناً منهم بأهميته وضرورته في الحفاظ على اللغة العربية، لغة القران الكريم.

❖ منهج البحث:

ينهج هذا البحث المنهج الاستقرائي؛ وذلك في محاولة لرصد أهم الآراء حول ظهور النّحو، ومن ثم يستعين بالمنهج التاريخي في محاولة ربط تلك الآراء بالفترة التي ولد فيها علم النحو، ويهدف البحث الى بيان ماهية النحو، وذلك من خلال الوقوف عند أهم المؤسسين له ودوافعهم الكامنة وراء تأسيسهم لهذا النوع من العلوم.

❖ الإشكالية: يتصدى البحث لجملة من الإشكاليات، أهمها:

ما هو علم النحو؟ ما هي التعليقة؟ وما علاقتها بنشوء النحو؟ ومن هو مؤلفها ؟

ويتفرع من هذه الإشكالية جملة من الأسئلة التي سيحاول البحث الإجابة عليها وهي :

-ما هو مفهوم النحو ما هو مفهوم التعليقة؟

- ما هي أسباب ولادة هذا العلم؟

-من هو مؤسس علم النحو؟

الدراسات السابقة:

لقد استعان البحث بجملة من الدراسات، لعلّ أبرزها:

نشأة النحو، وتاريخ أشهر النحاة، لمحمد الطنطاوي.

- الأشباه والنظائر للسيوطي.
- مراتب النحويين، لعبد الواحد بن علي حلبي.
- نزهة الألباء، الأنباري.

المبحث الأول
في مفهومي النّحو والتعليقة

تكوّن قضية المفهوم وتحديد المصطلح، الباب الأوّل الذي يتم عبره الدّخول إلى أيّ علم، ومن هذه النقطة فإنّ تحديد المصطلح يغدو المهمة الأولى، التي يجب أن يقوم بها الباحث، وما يجب لفت النّظر إليه أنّ عملية ضبط المصطلح وتحديد ماهيته ليس بالأمر الهين، وهي مسألة إشكاليّة تزداد خطورتها إذا ما تعالق المصطلح المدروس مع المصطلحات القريبة منه، ومن هنا فإنّ عملية ضبط المصطلح ليست من قبيل الإجراء الشكلي، بقدر ما هي عملية تمس الجوهر الفكري والمضمون المعرفي، الذي يشكّل مسار العلم وموضوعه .

❖ المطلب الأوّل: مفهوم النّحو:

يأخذ المصطلح في الانتشار بين النّاس، إذا استطاع التعبير عن المعنى المراد بدقة، ومن هذه النقطة فمصطلح النّحو في اللغة العربية، هو من المصطلحات التي تعددت الآراء فيها وتنوعت، فكلّ عالم يقدّم تصوره لمفهوم النّحو منطلقا من زاوية معينة، ولكن هذه التعريفات بمجملها قدمت مفاهيم محورية لهذا العلم، فما هو مفهوم النحو ؟

- أولاً: المعنى اللغوي لكلمة (نحو):

نحا إلى الشيء : ذهب إليه قاصدا إياه

نحا الشيء قصده ونحا عن الشيء أزاله و أقصاه

– النحو: القصد، يقال نحوت نحوه قصدت قصده .

في الواقع هنالك معانٍ كثيرة لكلمة(نحو)، فقد يأتي بمعنى المِثل مررت برجل نحوك أي مثلك.

وقد يأتي بمعنى الجهة: صرت نحو المنزل أي جهة المنزل.

ويأتي بمعنى التقسيم من مثل ينقسم البيت إلى أربعه أنحاء أي أقسام .

لكنّ المعنى المشهور والأكثر استخداماً وشيوعًا هو (القصد)، وهو المعنى الذي أراده النحويون، عندما أطلقوا هذه التسمية على هذا العلم .[١]

- ثانياً: مصطلح النحو :

تعدّدت المفاهيم الدالة على هذا المصطلح عند اللغّويين القدامى، ولعلّ السّبب الرئيس في إطلاق هذه التسمية على علم النحو ما قاله الزجاجي في هذا المضمار: إنّ أبا الأسود الدؤلي قال: «انحُ هذا النحو أي اقصده، ثم يعلّق على ذلك قائلا: والنّحو القصد فسمي لذلك نحوًا»[٢]

في الواقع هنالك تعريفات متعددة لعلم النحو منها ما قاله ابن جني: « النحو هو اتباع كلام العرب من حيث التصريف و الإعراب وغيره والجمع والتثنية والإضافة والتكسير والتركيب والتحقير والنسب وغير هذا ؛ ليتعلم من هو غير عربي لغة أصحاب العربية ويصبح مثلهم في الفصاحة فيتكلم بالعربية مثلهم، وإن أخطأ عاد وصحح خطأه اعتماداً على قوعد اللغة [٣]

أمّا السيوطي فعرفه بقوله: هو علم مستنبط بالمقاييس المستخرجة من كلام العرب الذي يوصل عبره إلى معرفة اجزائه التي يتكون منها، [٤] فالنحو عنده يعادل اللغة العربية .وعرّفه الأشموني: هو علم يبحث عن أحوال أواخر الكلمة إعراباً وبناءً[٥] وقيل أيضا علم يعرف من خلاله الكلام الفاسد من الصحيح .

أمّا الجرجاني فقد عرفه بقوله: هو علم له قوانين يعرف من خلالها أوضاع التراكيب العربية من حيث البناء و الإعراب وغير ذلك. [٦]

- من خلال قراءة ما تقدم يمكننا القول:

(١) يُنظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٤، مادة نحو

(٢) الزجاجي، أبو القاسم، الإيضاح علل النحو، تحقيق: مازن الميارك، دار النّفائس، بيروت، ط٣، ١٩٧٩. ص٨٩.

(٣) ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ه) الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨ ج١، ص٣٤.

(٤) السيوطي، الحافظ جلال الدّين عبد الرّحمن، الاقتراح في علم أصول النّحو، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١، ص٣٨

(٥) () -. صبّان، محمد بن علي، حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقة، مصر، القاهرة، ١/ ٢٤

(٦) الجرجاني، علي، التّعريفات، ص٢٤٠.

إنّ بعض علماء اللغة وجدوا مصطلح النحو هو مصطلح يعني اللغة العربية عامة، كما كان في تعريف ابن السراج، والأشموني عندما صرح أنّ المراد بالنحو هو علم العربية. بينما يرى فريق آخر أنّ النحو يقتصر على أحوال البناء والإعراب وهذا رأي الزجاج، الذي قال إنّ النّحو يسمى إعراباً، والإعراب نحواً سماعاً، لأنّ الغرض طلب علم واحد. وأيضا ما جاء في حاشية الصّبان عن الأشموني، فإنّه علم يختص بمعرفة حركة أواخر الكلمات إعراباً وبناءّ.

بينما ذهب فريق ثالث إلى أنّه لا يشمل علوم اللغة كلها، ولا يتناول الإعراب والبناء فقط، كما ذهب أصحاب الرّأي الثاني، وإنّما النّحو يشمل الجمل وما تفرضه العلاقات بين المفردات من تغيير حركه الإعراب، وفي الوقت ذاته تتناول الكلمة بحدّ ذاتها وهو، وهذا الرأي هو الأكثر انتشارًا في التراث اللغوي النحوي، وقد وضّح ذلك ابن جني بقوله: إنّ التّصريف جاء لمعرفة الكلمة الثابتة، وأمّا النّحو فجاء لمعرفة أحوال الكلمة المتنقلة .[1]

إن علم النحو لا علاقة له بدراسة الكلمة في ذاتها؛ لأنّ ذلك من مهام علم الصرف ،وإنّما يدرس أحوال الكلمة والعلاقات الناتجة عن دخولها في علاقة مع المفردات الأخرى، ضمن سياق الجملة. وبناء على ذلك فالدرس النحوي لا يشمل الدّرس الصّرفي، وإنّ لكلّ علم من هذين العلمين مجاله المختلف عن الآخر، حتى وإن اجتمعا معاً على دراسة اللغة، ولكن لكل علم أدواته المختلفة التي يدرس من خلالها اللغة.

❖ المطلب الثاني : مفهوم التعليقة:

- أولاً: المعنى اللغوي :

علّق الفعل المضارع :يعلّق المصدر: تعليقاً، اسم الفاعل منه مُعلِّق، و اسم المفعول منهُ معلَّق.وعندما يؤجلّ القاضي البت بالحكم يقال: علّق الحكم.

وعندما يُعَقّب المرء على كلام غيره ويتعقبه ذاكراً ما فيه من مساوئ أو محاسن.

يقال : علّق، وتعليقُ حكمٍ-: وقف تنفيذه. قدّم تعليقاً على الأخبار: إيضاحاً

ما يكتب في الهامش من تعليقات تخصّ النص : أو توضيحات على أفكاره أو معانيه، أو ملاحظات مختلفة

والتعليقة : هي ما يورد في حاشية الكتاب من توضيح لبعض الأمور الغامضة .[2]

(١) ابن جني، الخصائص ١/ ٤.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة علق.

- ثانياً: مصطلح التعليقة :

ورد اسم التعليقة اسما لكتب كثيرة في التراث العربي القديم، وأشهرها كتاب التعليقة على كتاب سيبويه، لأبي علي الفارسي، والتّعليق عنوان شائع يطلق على كتب الشّروح والحواشي .

لو تأملنا كتب التراث العربي فسنجد أنّ هذه التسمية لا تطلق إلّا على كتب الشّروح أو على حواشي الكتب، أو تعليق على رسائل سابقة، واذا سألنا على أيّ كتاب أو رسالة كانت تعليقة أبي الأسود الدؤلي؟ والجواب إنّها تعليق وشرح ثم إضافة على ما كتبه الإمام علي (رضي الله عنه) لأنّنا لم نسمع بكتاب، أو صحيفة يمكن أن يعلّق عليها أبو الأسود، غير صحيفة الإمام علي رضي الله عنه. ،[1]

فالتعليقة النحوية: هي المعلومات النحوية التي زود بها الإمام علي – رضي الله عنه– أبي الأسود الدؤلي،. [2]

- من خلال ما تقدم يمكننا القول:

إنّ التعليقة هي عدد من المصطلحات النحوية التي كان أبو الأسود يأتي إلى الإمام علي– رضي الله عنه– ليسأله عنه، ويناقشه فيها ومن هذه المحاورات والمناقشات انبثقت مصطلحات جديدة، مصطلحات جديده أثبتها أبو الأسود في تعليقته [3]

المبحث الثاني
أسباب نشأة علم النّحو

- المطلب الأوّل: نشأة علم النّحو:

تجمع الأبحاث على أنّ الغموض يلّف الظّروف التي نشأ فيها علم النحو، وتختلف الرّوايات في كيفية نشوئه، ولكنّها جميعاً تتفق على أنّ الإمام علي بن ابي طالب –رضي الله عنه– أسس بدايته الأولى، ورسم خطوطه ومعالمه الأساسية.

وممّا هو موضع إجماع لدى أغلب الدارسين، أنّ العرب قبل الاسلام لم يكونوا بحاجة إلى هذا العلم، وذلك لأنّهم كانوا ينطقون على السّليقة التي جبلوا عليها، بطريقة صحيحة، فيتكلمون في شؤون حياتهم من دون تكلف، ومن دون الحاجه إلى قانون كلامي يخضعون إليه؛ لأنّ قانونهم هو السليقة التي

(١) يوحنا مرزا الخامس، موسوعة المصطلح النحوي من النشأة إلى الاستقرار دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١، ص ٥٣.

(٢) قفطي، علي بن يوسف، إنباه الرّواة على أنباء النّحاة، القاهرة، دار الكتب العلمية، ١٩٥٠.

(٣) موسوعة المصطلح النحوي، ص٦٤.

تعلموها من البيئة المحيطة بهم.[١]

وقد حاول دارسو اللغة أن يزيلوا الغموض، الذي ساد حول نشأة النحو العربي بعد الإسلام، وأن يشيروا إليه بشيء من الدّقة، فالنّحو العربي وقبل أن يصل إلى مرحلة النّضج قد مر بمراحل تطوريّة كبيرة، فما بين نشأة النحو وكتاب سيبويه ما يزيد على مئة سنة، [٢]

وإذا كان بعض الباحثين يجدون أنّ النحو لم يكن بدايته يقوم على أسس علميّة، ولم يوضع دفعة واحدة، بل إنّ الملاحظات التي تتضمن الإشارة إلى الخطأ وتصححه، قد ساهمت فيما بعد في التفكير بوضع تصوّر عام لقواعد اللغة العربية، ولعلّ ما بدأه أبو الأسود الدؤلي وتابعه من بعده تلامذته، كان سببًا في ازدهار هذا النوع من الأبحاث النّحوية الخاصة باللغة.[٣]

ولما أتى الخليل بن أحمد الفراهيدي كان النّحو العربي على موعد مع رجل يمتاز بعقل نحوي مبدع؛ إذ على يده خلق النحو سوياً كامل الأصول والفروع، وهو الذي أقام أركان النحو بما وضع فيه من مصطلحات، حتى إنّ النّظرية النّحوية اللغوية (العامل والمصطلحات التي دارت حولها) و التي أقام عليها سيبويه كتابه، كانت من وضع الخليل. [٤]

يذهب الكثير من علماء العرب إلى التأكيد على أنّ النّحو نشأ نشأة عربيّة خالصة، وإلى هذا أشار الشيخ محمد الطنطاوي بقوله: إنّ بداية النّحو في العراق وذلك في صدر الإسلام، ثم أخذ يتطور حتّى اكتملت فصوله، وهو في ذلك كلّه غير مقتبس من لغة أخرى، وقد ادعى بعض المستشرقين أنّ علم النحو مقتبس من القواعد التي وضعها اليونانيون للغتهم، وهذا مجرد افتراض لا أساس له.[٥]

أمّا عبد العالم سالم مكرم فقد عزا قضية إنكار نسبة النحو إلى العرب؛ لأنّ الفكرة التي سيطرت على عقول المفكرين إنّ العرب أمّة لا تعرف القراءة والكتابة؛ لأنها أميّة.[٦] وهذا الكلام يحتاج إلى بحث وتقصي

لقد نشأ علم النّحو العربي حفاظاً على القرآن الكريم، وخوفاً عليه من التّحريف النّاجم عن القراءة الخاطئة، فالظروف التي كانت سببًا في نشوء علم النحو هي ظروف أملتها طبيعة المجتمع العربي الإسلامي،

(١) يُنظر: الطنطاوي، محمد نشأة النّحو و تاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥، ص١٢.
(٢) يُنظر: عمر، أحمد مختار، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة،ط٨، ٢٠٠٣، ص٧٠.
(٣) عبد الكريم، بكري، ابن مضاء وموقعه من أصول النّحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٤، ص٥٢.
(٤) خليل، حلمي، المرجع السّابق، ص١٣-٣٢
(٥) طنطاوي، محمد، نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ٢١-٢٣
(٦) مكرم، عبد العال سالم، الحلقة المفقودة في النّحو العربي، مؤسسة الرّسالة، ط٢، ١٩٩٣، ص١٥

فالتشكيك في النحو العربي ونسبته إلى غيره من الأمم هو كلام يحتاج إلى برهان، فالهدف الرئيسي لظهور علم النحو وتطوره، هو الحفاظ على اللغة العربية من اللحن، الذي أخذ ينتشر في اللغة وخصوصاً عند قراءة القرآن، و ذلك بعد أن امتدت الفتوحات الإسلامية وهذا ما ستناوله في الفقرة الأتية.

❖ المطلب الثاني: أسباب وضع علم النحو:

إنّ السعي إلى ضبط اللغة وتقعيدها كان نتيجة عوامل حضارية واجتماعية مرّت بها اللغة العربية، فعلم النّحو هو علم جديد لم يكن معروفًا من قبل، وليس هذا وحسب وإنّما هو علم دقيق معقد، في الواقع هنالك أسباب تكمن وراء انبثاق هذا العلم في تلك المرحلة الحسّاسة من التاريخ العربي.

• السبب الأوّل: تفشّي اللحن : اختلطَ العرب بالأممِ الأعجمية فضعفت الملكة العربية، وانتشر اللحن على ألسنة الناس، ومن أجل الحفاظ على لغة الأقوام الذين دخلوا في الإسلام من الخلل، وتقويماً لفساد الألسنة وضع النحو، فالعرب قبل الإسلام لم تكن بحاجة إلى النحو، وذلك لعدم وجود اللحن فالعرب كانت في العصرين الجاهلي والإسلام لا تزل تتكلم وفق ما ينسجم مع السليقة ولكنّ زيادة عدد الداخلين في الإسلام، واتّساع رقعة الدولة الإسلاميّة جعلت الحاجة كبيرة لهذا النوع من العلوم، وقد ظهر اللحن جليا في مختلف مستويات اللغة الدلالية والنحوية والصوتية والصرفية، وضمن هذا السياق ما قاله أبو الاسود الدؤلي عند ازدياد الموالي الذين دخلوا الإسلام، ورغبته في تعليمهم الكلام العربي، لأنّه اعتبرهم أخوة-(١).

وممّا لا شك فيه إنّ التعليم يحتاج أوّل ما يحتاج إلى قوانين وأنظمة توضح بنية الكلمة وقواعد تصريفها، وتشرح كيفيّة التّعامل معها، والتّغيير الذي أصابها، وذلك من أجل اختيار الصيغة المناسبة للتعبير الصحيح، وبذلك فقد وضع النّحو محققا لهدفين بآن واحد:

-الهدف الأول تعليم الموالي الداخلين في الدّين الإسلامي أصول اللغة.

-والهدف الثاني :الحدُّ من اللحن الذي بدأ يتسرب إلى الكلام العادي، وقد أحسّ العرب بخطورة اللحن على اللغة، فسعوا إلى وضع علم النّحو لحماية اللسان من الزلل والخطأ، ولعل هذا يدل دلالة واضحة على نفور العرب الشديد من اللحن لأنهم رأوا فيه انحرافًا عن الصواب وهروبا من ضوابط اللغة، وقد أن وُصف اللحن بالضلال؛ « ولذلك فقد دعا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم إلى إرشاد الشخص

(١) الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢، ص٢٢

الذي لحن عند القراءة ودعا خطأ ه ضلالاً ينبغي تقويمه» [1]

ومن هذه النقطة فقط حصر ابن خلدون ظاهرة اللحن، الذي تعرضت له اللغة العربية بسبب مخالطتها الأعاجم في مجالين اثنين:

-المجال الأوّل في اللفظ: وتمثل ذلك في الخطأ في نطق الكلمة وفي بنيتها النحوية، والصرفيّة.

-المجال الثاني :في المعنى وقد عرض الكاتب لنماذج كثيرة من كلام العرب، الذي أُستخدِم في غير مجاله الدلالي [2] لقد شعر الناس في ذلك الوقت، ولا سيما العلماء منهم بهذا الخطر الحقيقي المحدق باللغة العربية، وأنّها مهددة بالانحلال، وما سينجم عنه من الضياع، مما جعل العلماء يفكرون بشكل جدي بطريقة تساعدهم على الحفاظ على هذه اللغة نقية صحيحة لا يشوبها الخطأ أو اللحن، فقاموا بأول عملية درس لغوي، والتي انطلقت بداية في شكل مجمل ومكثّف، ومن ثمّ انبرى النحاة في التفصيل في هذا العلم، ودراسته دراسة دقيقه، يدفعهم إلى ذلك ما سمعوه من فساد ألسنة الناس، واختلاف ألفاظهم، فسعوا إلى احتواء كل ما من شأنه تعكير صفاء اللغة، ولهذا لا نعجب من تلك الروايات التي تمتلئ بها كتب اللغة والتي تشير بمجملها إلى رفض اللحن، والابتعاد عمّن يتصف بهذه الصفة؛ ولمحاربة ظاهرة اللحن، أرسل النّاس أبناءهم إلى البادية، لكي يتعلموا اللغة بطريقه صحيحة. ابتعدوا عن خطر اللحن المتزايد، و الناتج عن العلاقات اليومية المتنامية بين أبناء هذه اللغة من جهة وأبناء اللغات الأخرى الذين انخرطوا في المجتمع الجديد من جهة أخرى، ولقد نتج عن ذلك حركة لغوية سعت إلى إعادة اللغة إلى ضوابطها والقضاء على الأخطاء التي سرت كالمرض في جسد اللغة .

- السبب الثاني: الحفاظ على القرآن الكريم:لم تكن عملية ضبط اللغة العربية وتقعيدها ناتجة عن فقط عن خطأ مفاجئ بالضبط أو لحن عابر في الحركات الإعرابية، وإنّما نتج عن مرحلة من المعاناة، ووقت طويل من الملاحظة والرصد المحفوف بالخوف من تفشي اللحن، وتأثير ذلك على قراءة القرآن، وما ينجم عنه من تحريف للقرآن.

وقد تنبّه العلماء إلى الدور الذي تؤديه دقه اللفظ، وصحته في المعنى، فخصوا اللغة بالدراسة وأولوها العناية، واستخرجوا أحكامها وبينوا معانيها ؛ لأنّ جل المعنى القرآني مرتكز عليها، ولعلّ تلك الحادثة الشهيرة التي تدور حول الخطأ بعض الأعراب في قراءة الآية الكريمة «إن الله بريء من المشركين ورسوله»

(١) ابن جني، الخصائص، ص٨٢.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٨٤- ٤٨٥.

التوبة، آية ٣، إذ قرأ بكسر اللام (ورسولِه) فسمع ذلك أحد الأعراب فقال: إذا كان الله قد برء من الرسول، فإنّي أنا أبرأ أيضا منه، فقام عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- بتصحيح بالأمر وذلك بقراءة رسوله بفتح اللام فعلم الأعرابي أنّ الله ورسوله قد برؤوا من المشركين.(١) وبذلك فقد اكتسبت اللغة العربية بفضل الإسلام بعداً دينيّا وإن كنّا لا نبالغ في أنّ القرآن الكريم ساهم ليس فقط من انتشار اللغة العربية وحفظها وبقائها، وإنّما أيضا في توسيع المادة اللغويّة ودراستها وشرحها واستنباط قواعدها.

ولكي يتم السيطرة على الأخطار الناجمة عن اللحن، فقد وضع أبو الأسود الدؤلي النحو لضبط أواخر الكلمات فحرك المصاحف، وجعل علامة الجرّ نقطة تحته، وعلامة النصب نقطة فوق الحرف، وعلامة الرفع نقطة بين يدي الحرف، ولكنّه لم يضع علامة السكون، واكتفى بأن يكون إهمال الشكل هو السكون، وقد انتشر هذا الأسلوب وأضيف إليه علامة التنوين، فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى(٢) ثمّ أخذت علوم النّحو تتسع وتتشعب بفضل الدراسات المختلفة، مثل تفسير القرآن وإعرابه، وصارت مثل هذه الدّراسات تؤثر في البحث النحوي.

المبحث الثالث
تعليقة أبو الأسود الدؤلي

❖ المطلب الأوّل: أبو الأسود الدؤلي:

تؤكد أغلب الدراسات العربية المستندة إلى كتب التراث العربي، أنّ من أسس علم النّحو هو أبو الأسود الدؤلي، بإيعاز من الإمام علي- رضي الله عنه- فمن هو أبو الأسود الدؤلي ؟

هو ظالم بن عمرو بن سفيان المشهور بأبي الأسود الدؤلي، ولي قضاء البصرة في ولاية عبد الله بن عباس، ولما خرج الإمام (علي) رضي الله عنه إلى العراق لازمة في حربه، وقاتل معه يوم الجمل، وظلّ يعلن تشيعه لآل البيت، وكان من سادة العلماء في عصره، فهو من وجوه النحويين والقراء والشّعراء، وله أشعار في الزّهد، والترفع عن مطامع الدنيا، عُرِف عنه الذكاء والنبوغ، وقد علا صيته بين الشّرفاء والفرسان وأصحاب النوادر، وقد مكنته صفاته تلك ولا سيما الذكاء وسرعة البديهة من أن يعيش حياته في البصرة معززاً مكرماً، فقد كان عاملاً للإمام علي- رضي الله عنه- كما سبق وقلنا ولعلّ علومه ومعارفه في القرآن

(١) الانباري، نزهة الألباء، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٩٥، ص٨
(٢) الفاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي، ص٣٤١-٣٤٢

كانت سبباً من الأسباب التي جعلت اتصاله بالإمام علي اتصالاً وثيقاً، وقد كان من نتائج انفتاح ملكاته الفكرية وإبداعاته اللغوية المتميزة، أن يضع الأساس الأول لعلم النحو، كما يتفق جمهور المؤرخين، يقول ابن سلام الجمحي في مقدمة طبقات الشعراء: إنَّ أبا الأسود الدؤلي كان من أوائل الذين أسسوا العربية وفتحوا بابها واسعاً، ووضعوا قياسها، وإنّما فعل ذلك عندما اضطربت اللغة العربية وتشوهت سليقة الناس فكان أغلبهم يلحنون(١)

إنّ أبا الأسود الدؤلي نقطة مفصليّة في علم النّحو، وقد حصل على هذه المعرفة من خلال شخصيّة مليئة بالمعرفة هي شخصيّة الإمام علي- رضي الله عنه -ولعلّ هذا ما جعله يبرز في مجال النحو واللغة، فإليه نُسِب علم ضخم، ما يزال يمسك بزمام اللغة ويصوّب أخطاءها، ويعيدها إلى جادة الصّواب. في الواقع إنّ الأسباب التي جعلت مولد هذا العلم على يدي أبي الأسود الدؤلي ترجع إلى ما يلي:

السبب الأول: أنّه نشأ في بيت علمٍ وأدب، وارتوى من النبع الأساس من نبع الإمام علي -رضي الله عنه -ولعلّ إيمان علي- رضي الله عنه - بعقلية أبي الأسود قد هي ما جعلته يسند إليه هذا العمل المعقد .

السبب الثاني : أنّه كان ضليعا باللغة العربية عارفاً بغريبها، ومعرفة الغريب في اللغة اختص بها قلّة من العلماء، وقد فتح أبو الأسود الدؤلي الطّريق واسعاً أمام العلماء الذين جاؤوا بعده.(٢)

لقد اتفق الدارسون على أنّ أبا الأسود، نقط المصحف تنقيط إعراب وتنقيط المصحف وفق ما ذكره الرواد دلالة واضحة على أنّ أبا الاسود قد حذق الإعراب ووضح مفهومه في ذهنه، وما النحو في جوهره إلّا هذه الحركات التي تتغير بين رفع ونصب وجر ذلك وفق ترتيب الكلام الجملة، وهو عمل يرتبط بإدراك نظام الجملة العربية، وتغيير حركات الإعراب فيها،

ومن هنا نستطيع القول إنّ معظم الرواة قد اجمعوا على أنّ أبا الاسود الدؤلي هو المؤسس الأول لعلم النحو، وقد رسم لتلاميذه أسس هذا العلم .

- أشهر تلامذته: أخذ أبو الأسود الدؤلي يُدرِّس هذا العلم الجديد لتلاميذه، ومن هنا فقد كانت أفكاره مدروسة دراسة دقيقة، وقد أدى رسالة المعرفة إلى طلاب أحبوا الغوص في بحر هذا العلم الجديد، وأتمّوا من بعده نقل الرسالة إلى الجيل الذي تلاه، ولعل أشهرهم: نصر من عاصم الليثي البصري، أبو الحرب بن أبي الأسود الدؤلي، عطاء بن أبي الأسود الدؤلي، عنبسة بن معدان الفهري، المعروف بعنبسة

(١) الجمحي، محمد بن سلام طبقات الشعراء،، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١، ص٢٩
(٢) مكرم، عبد العال، الحلقة المفقودة في تاريخ النّحو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣، ص٢١-٢٢ .

الفيل، سعد بن شداد الكوفي، عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، يحيى بن يعمر البصري القيسي، حرّ بن عبد الرحمن النحوي القارئ.[١]

هؤلاء هم التلاميذ الذين نقلوا إلينا علم هذا الرجل وهم يعيدون أمناء في نقل هذا العلم إلى الذين أتوا من بعدهم.

❖ المطلب الثاني: التعليقة ومصطلحاتها :

إضافةً إلى الأسباب التي تمّ ذكرها سابقاً، التي أدت إلى نشوء علم النّحو، هنالك أسباب مباشرة يذكرها المؤرخون في كتبهم، وهي الدّافع المباشر لنشوء هذا العلم:

قال المبرد ذاكرا الدافع وراء وضع فصول النحو أنّه كان لأبي الأسود بنتاً قد لحنت بأسلوب التعجب قالت له : ما أحسنُ السماء برفع كلمة أحسن، فقال لها: نجومها فوضحت قصدها قائلة بأنّها تريد التعجب من جمالها فصحح لها ذلك وأنّ عليها أن تضع علامة الفتح على الكلمتين ،[٢] لعلّ هذا الخطأ في استخدام الكلمات وما ينجم عنه من الاضطراب في الفهم، هو السّبب الأساس الذي جعل أبا الأسود يخاف من ضياع العربية، وينبري لتأليف نظام يحفظ اللغة من الضياع، ولعل السبب في ذلك هو أول ما وضع في النحو باب التعجب ولعل السبب في ذلك أنّ ابنته لحنت في هذا الباب، يذكر المؤرخون أنّ أبا الأسود، دخل على علي – رضي الله عنه – ومعه رقعه فيتعجب سائلاً عنها، فيرد عليه السلام بقوله: إنّه وجد فسادا في كلام العرب بسبب مخالطتهم من هم أعاجم، ولذلك أراد أن يقدم لهم شيئا يعتمدون عليه، فلا يخطئوا ثم أعطى الرقعة إلى أبي الأسود، وفيها مبادئ علم النحو، وقد قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف ،وطلب من أبي يقول الأسود أن ينحو هذا النحو ،.[٣] .فأبو الأسود قد أخذ علم النحو عن الإمام علي –رضي الله عنه–

❖ التعليقة : إنّ أغلب الكتب التاريخية تؤكد أنّ اسم كتاب أبو الأسود الدؤلي هو التعليقة، والتعليقة كما تمت الإشارة إلى ذلك في المفهوم، هي شرح أو حاشيه لكتاب أو رسالة والتعليق عليها، فما هي الرّسالة التي علّق عليها أبو الأسود الدؤلي؟

لقد علق أبو الأسود الدؤلي على ما كتبه الإمام علي – رضي الله عنه – وقد قام محمد خير البقاعي بنشر نص التعليقة في مجله العربي السّعودية:

(١) ينظر إنباه الرواة على أنباء النحاة ج١/ ٢١، نزهة الألباء، ص٢٣، مراتب النحويين، ص٢٤.
(٢) الأنباري، عبد الرحمن بن محمد نزهة الألباء، ص١٢.
(٣) الأنباري، نزهة الألباء، ص٤-٥.

فالكلام جميعه عبارة عن حرف وفعل واسم،، والفعل ما أخبر عن حركة المسمّى، والحرف ما عبر عن شيء، ليس فعل ولا اسم، أمّا الاسم ما أخبرَ عن المسمّى، أما الأشياء فهي : إما مضمرٌ أو ظاهر، وشيءٌ آخر ما هو بمضمرٍ، ولا ظاهر، وإنّما يتفاعل النحويون في معرفته، ما هو ليس بمضمر، ولا ظاهر، قال فعرضت عليه أمور جمعتها، فكان من ذلك حروف النصب فأوردت منها ليت وكأنّ أنّ، إنّ، ولعلّ، ثم أوردت لعلّ، ولكني لم أذكر لكنّ، فسألني لم تركتها؟ فقلت: لم أعتقد أنّها منها. فطلب مني أنّ أزيدها [١]

وعبر النص السّابق نستطيع القول: إنّ الإمام علي- رضي الله عنه – قد وضع قواعد عامّة أو أصول، وطلب من أبي الأسود الدّؤلي أن يوضحها، [٢]

ومن خلال ما ورد في التعليقة فقد أورد الإمام – رضي الله عنه – العديد من المصطلحات التي أرست قواعد علم النحو، ولعل أولها مصطلح الكلم وقد قصد به الإمام كما هو واضح الجملة الكاملة، لقد تتبع علماء العربية الألفاظ التي قالها العرب، فلم يعثروا إلّا هذه الثّلاثة، التي صرّح بها الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- [٣]

❖ مصطلح (الاسم الفعل الحرف).

فمصطلح الحرف له دلالات عديدة، فالحرف يقصد به حروف الهجاء والقرآن نزل على سبعة أحرف أي لهجات» [٤] ولكن مدلول الحرف في الصحيفة هو قسم من أقسام الكلام العربي، وقد نسبت العديد من المصادر تلك المفاهيم الثلاثة إلى الأمام علي – رضي الله عنه- [٥]

مصطلح الحركة: حصر الإمام مصطلح الحركة في الفعل، فالفعل ما أنبأ عن حركه المسمى، أورد الإمام مصطلح الحركة، وهو أول مصطلح يطلق على الزمان في العربية [٦]

مصطلح الظاهر: كما عرفه النحاة هو ما دل بظاهره وإعرابه على المعنى المراد به، فالكلمات في اللغة العربية كلها ظاهرة، ويستثنى منها الضمائر.

مصطلح المضمر: فالإضمار هو الإخفاء والسر، وهو في معناه اللغوي يكاد يطابق معناه الاصطلاحي،

(١) البقاعي، محمد خير، تعليقة أبي ال أسود في أمالي الزجاجي الكبرى، مجلة العرب، عدد محرم وصفر، ١٤٢٨ هـ.
(٢) يُنظر: قفطي، علي بن يوسف، إنباه الرّواية على أنباء النّحاة، ١/ ٤
(٣) برهان الدين الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد، فرائد العقود العلوية على شرح الأزهرية، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار السلام، ١/ ٨٧.
(٤) () غريب الحديث، ٣/ ١٥٩.
(٥) ينظر أمالي الزّجاجي الملحقات ص٢٣٨.
(٦) ينظر، يوحنا ميرزا السادس، موسوعة المصطلح النحوي من النشأة الى الاستقرار، ص٦٣..

(ما دلت وصفا على متكلم أو مخاطب أو غائب) ويقصد فيها الضمائر. [١]

مصطلح ما ليس بظاهر ولا مضمر: قد شرح العلماء هذا المصطلح فقال الزجاجي المقصود به هو أسماء الإشارة وأسماء الاستفهام، قال أبو البركات الأنباري: إنّ المراد بذلك الاسم المبهم، وقال السيرافي يعني اسم الإشارة .[٢]

إنّ ما قام به أبو الاسود الدؤلي من تنقيط المصحف بعلامات الحركات ووضع باب الفاعل والمفعول والمضاف، يبدو امتدادا طبيعيا لاهتمام العرب، ولاسيما القائمين على شؤون الدولة الإسلامية في ذلك الوقت، وحرصهم على تعليم اللغة العربية، ولا سيما تعليم الحروف الثلاثة الجر والرفع والنصب وهي علامات الإعراب، ومن هنا نستطيع القول:

لقد كان القرآن الكريم – وهو أول كتاب عربي – محور اهتمام العلماء والمفكرين، ولا عجب أن تنشأ حوله دراسات لغوية، فقد كانت ألفاظه تدور في عصور سبقت عصر فساد اللغة، ومن أجل ذلك كانت ألفاظه ألفاظاً عربيّة سليمة، فكانت المثل الذي يحتذيه النحاة في وضع أسس قواعد اللغة العربية كلّها.

أهم النتائج:

خلص البحث إلى جملة من النتائج:

- نشأ علم النحو حفاظاً على اللغة العربية، لغة القرآن، وخوفاً من تفشي اللحن، وهو أمر خطير يهدد اللغة، ويحرف القرآن عن دلالته .
- إنّ تعليقة أبو الأسود الدؤلي، هي شرح لما قاله الإمام علي (رضي الله عنه)، ولم تذكر كتب التاريخ اسماً لكتاب من الممكن أن يعلق عليه أبو الأسود الدؤلي، سوى صحيفة الإمام .
- إنّ النحو العربي قد نشأ نشأة عربية، خالصة، فرضتها الظروف التي كانت سائدة، بعد انتشار الإسلام، واتساع رقعة الدولة الإسلامية خارج الحدود العربية.

(١) الفاكهي، عبد الله بن أحمد، شرح كتاب الحدود في النحو، مكتبة وهيبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣، ص٦٧.

(٢) يوخنا، ميرزا، موسوعة المصطلح النحوي، ص ٦٣.

المصادر والمراجع

١. ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ه) الخصائص، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٨ ج١.

٢. ابن خلدون، المقدمة.

٣. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩٤، مادة نحو

٤. الأنباري، عبد الرّحمن محمد، نزهة الألباء، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٩٥،

٥. برهان الدين الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد، فرائد العقود العلوية على شرح الأزهرية، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار السلام.

٦. البقاعي، محمد خير، تعليقة أبي الأسود في أمالي الزجاجي الكبرى، مجلة العرب، عدد محرم وصفر، ١٤٢٨ هـ.

٧. الجرجاني، علي، التّعريفات.

٨. الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١

٩. خليل، حلمي، دار الكتب العلمية، بيروت، العربية وعلم اللغة البنيوي، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥،

١٠. الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢،

١١. الزجاجي، أبو القاسم، الإيضاح في علل النحو، تحقيق: مازن المبارك، دار النّفائس، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.

١٢. السيوطي، الحافظ جلال الدّين عبد الرّحمن، الاقتراح في علم أصول النّحو، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١،

١٣. صبّان، محمد بن علي، حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقة، مصر، القاهرة، ١/ ٢٤

١٤. الطنطاوي، محمد نشأة النّحو و تاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥

١٥. عبد الكريم، بكري، ابن مضاء وموقعه من أصول النّحو العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

١٩٨٤، الفاكهي، عبد الله بن أحمد، شرح كتاب الحدود في النحو، مكتبة وهيبة، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣،
١٦. عمر، أحمد مختار، البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط٨.
١٧. الفاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي.
١٨. قفطي، علي بن يوسف، إنباه الرّواة على أنباء النّحاة، القاهرة، دار الكتب العلمية، ١٩٥٠.
١٩. مكرم، عبد العال سالم، الحلقة المفقودة في النّحو العربي، مؤسسة الرّسالة، ط٢، ١٩٩٣،
٢٠. يوحنا مرزا الخامس، موسوعة المصطلح النحوي من النشأة إلى الاستقرار، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١.

Sources and References

1. Ibn Jinni, Abu al-Fath Uthman (d. 392 AH), Al-Khasais, edited by Abdul Hamid Handawi, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, 3rd ed., 2008, vol. 1.
2. Ibn Khaldun, Al-Muqaddimah.
3. Ibn Manzur, Abu al-Fadl Jamal al-Din Muhammad ibn Makram, Lisan al-Arab, Dar Sadir, Beirut, 3rd ed., 1994, Grammar section.
4. Al-Anbari, Abdul Rahman Muhammad, Nuzhat al-Alba, Al-Ma'arif Press, Baghdad, 1995.
5. Burhan al-Din al-Halabi, Ali ibn Ibrahim ibn Ahmad, Fara'id al-Uqud al-Alawiyyah Sharh al-Azhariyah, edited by Fakhr al-Din Qabawa, Dar al-Salam.
6. Al-Baqa'i, Muhammad Khair, Abu al-Aswad's Commentary on al-Zajjaji's Great Amalis, Al-Arab Magazine, Muharram and Safar issues, 1428 AH.
7. Al-Jurjani, Ali, Al-Ta'rifat.
8. Al-Jamhi, Muhammad ibn Salam, Classes of the Great Poets, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 2001
9. Khalil, Hilmi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Arabic and Structural Linguistics: A Study in Modern Arabic Linguistic Thought, Dar Al-Ma'rifah Al-Jami'ah, 1995
10. Al-Zubaidi, Abu Bakr Muhammad ibn Al-Hasan, Classes of Grammarians and Linguists, edited by Abu Al-Fadl Ibrahim, Dar Al-Ma'arif, Egypt, 2nd ed.

11. Al-Zajjaji, Abu Al-Qasim, Al-Idah fi Ilal Al-Nahw, edited by Mazen Al-Mubarak, Dar Al-Nafayes, Beirut, 3rd ed., 1979
12. Al-Suyuti, Al-Hafiz Jalal al-Din Abd al-Rahman, Al-Iqtirah fi Ilm Usul al-Nahw, edited by Muhammad Hasan Ismail, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, 1971.
13. Sabban, Muhammad ibn Ali, Hashiyat al-Sabban: Al-Ashmouni's Commentary on Ibn Malik's Alfiyyah, edited by Taha Abd al-Ra'uf Saad, Al-Tawfiqah Library, Cairo, 1/24.
14. Al-Tantawi, Muhammad: The Origin of Grammar and the History of the Most Famous Grammarians, Dar al-Ma'arif, Cairo, 2nd ed., 2005.
15. Abd al-Karim, Bakri, Ibn Madha and His Position on the Principles of Arabic Grammar, Diwan al-Matbu'at al-Jami'iyyah, Algeria, 1984.
16. Omar, Ahmad Mukhtar, Linguistic Research Among the Arabs, Alam al-Kutub, Cairo, 8th ed.
17. Al-Fakhouri, Hanna, History of Arabic Literature.
18. Qifti, Ali ibn Yusuf, Inbah al-Rawat ala Anba' al-Nahhat (The Notification of the Narrators to the News of Grammarians), Cairo, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, 1950.
19. Makram, Abd al-Aal Salim, The Missing Link in Arabic Grammar, Al-Risalah Foundation, 2nd ed., 1993.
20. Yuhanna Mirza V, Encyclopedia of Grammatical Terminology from Origin to Establishment, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut, 2011.Sources